

٧٠ - سورة المعارج

مكية وآياتها اربع واربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) ﴿لِلْكَافِرِينَ الْآبَاءُ لَمْ دَافِعٍ﴾ (٢) ﴿تَنْزِيلُ الْغَمَامِ﴾ (٣) ﴿شَرَجَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ السُّورُ﴾ (٤) ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٥) ﴿تَأْوِيلُهُ مِثْرُ حَبَلَةٍ﴾ (٦) ﴿إِنْهُمْ يَوْمَهُمُ بُيُوتٌ مَبْنِيَةٌ﴾ (٧) ﴿وَرُكْنٌ قَرِيْبٌ﴾ (٨) .

﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ أي استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ . قال النسائي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ ، قال: (النضر بن الحارث) وقال العمري عن ابن عباس ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿سأل سائل﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال وهو قولهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ، وقوله تعالى: ﴿للكافرين﴾ أي مرصد معد للكافرين، ﴿ليس له دافع﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه، ولهذا قال تعالى: ﴿من الله ذي المعارج﴾ قال ابن عباس: ذو الدرجات، وعنه: ذو العلو والفراصل، وقال مجاهد ﴿ذي المعارج﴾ معارج السماء، وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم، وقوله تعالى: ﴿تمرج الملائكة والروح إليه﴾ قال قتادة: ﴿تمرج﴾: تصعد، وأما الروح فيحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء، في قبض الروح الطيبة وفيه: ﴿فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء﴾ حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله .

وقوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل الساقطين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين، إلى منتهى أمره من فوق السماوات خمسين ألف سنة^(١) . القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة، قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة، وذلك عمرها يوم سماها الله عز وجل يوماً . وعن عكرمة: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم متى ولا كم بقي إلا الله عز وجل^(٢) . القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو قول غريب جداً، روي عن محمد بن كعب قال: هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة^(٣) . القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة، وبه قال الضحاك وابن زيد وعكرمة، وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿تمرج الملائكة والروح إليه في يوم

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة .

(٣) رواه ابن أبي حاتم .

كان مقداره خمسين ألف سنة قال: هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قيل لرسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»^(١). وقال الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جيته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(٢).

وقوله تعالى: «فاصبر صبراً جميلاً» أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه كقوله تعالى: «يستعمل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق»، ولهذا قال: «إنهم يرونه بعيداً» أي وقوع العذاب، وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع «ونراء قريباً» أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل، ولكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالذَّهَبِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۚ وَلَا يَبْقَىٰ جَبَلٌ سِوَا ۖ يَمْرُدُّهُمْ بِودِّ الشَّيْءِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَتِيمٌ ۚ وَصَحْبِهِ رَأْسُهُ ۚ وَفَصِيلَتُهُ أَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ وَتَنَزَّلُ الْأَرْضُ خِشَاءً ۖ تَتَّبِعُونَ ۚ إِنَّهَا لَظَىٰ ۚ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوْءِ ۚ تَعْوَانِ ۚ أَفَرَّ وَقَوْلٌ ۚ وَجَمْعٌ فَأَوْهَىٰ ۚ﴾

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين «يوم تكون السماء كالذهب»، قال ابن عباس، ومجاهد: أي كدردي الزيت، «وتكون الجبال كالعهن» أي كالصوف المنفوش، قاله مجاهد وقتادة، وهذه الآية كقوله تعالى: «وتكون الجبال كالعهن المنفوش»، وقوله تعالى: «ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم» أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره. قال ابن عباس: يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: «واخشوا يوماً لا يجزي والد من ولده ولا مولود هو جاز من ولده شيئاً»، وكقوله تعالى: «يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبه وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»، وقوله تعالى: «يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه * وصاحبه وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينتجيه * كلا» أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، ويأخر ما يجده من المال، ولو حمل الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأحوال أن يفتدي من عذاب الله به، قال مجاهد والسدي: «فصيلته» قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذ الذي هو منهم، وقوله تعالى: «إنها لظى» يصف النار وشدة حرها «نزاعة للشوى»، قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وعن ابن عباس: «نزاعة للشوى» الجلد والهامة، وقال أبو صالح «نزاعة للشوى» يعني أطراف اليدين والرجلين، وقال الحسن البصري: تحرق كل شيء فيه ويبقى فؤاده يصيح، وقال الضحاك: تبرى اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئاً، وقوله تعالى: «تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوهى» أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم كانوا ممن أدبر وتولى، أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه «وجمع فأوهى» أي جمع المال بعضه على بعض،

(١) أخرجه أحمد وابن جرير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْبَشَرِ إِلَّا لَاقٍ ﴿٦٧﴾ هَلْ لَّيْلٌ مِّن مَّا عَمِلُوا قَدْحٌ ﴿٦٨﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنْ أَشْجَارٍ سَاكِتَةٍ إِلَىٰ نَصَبٍ يُفْضُونَ ﴿٦٩﴾ خَشِيعَةً لِّمَعْرَضٍ زُفْرَتُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلَّةٌ يَوْمَ الْآزِمِ كَلَّا يُفْضُونَ ﴿٧٠﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، وهم مشاهدون لما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم شاردون يمينًا وشمالًا فرقاء فرقاء، ﴿كأنهم حمر مستنفة﴾ * فرت من قسورة، قال تعالى: ﴿فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ أي فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مهطعين﴾ أي مرعين نافرين منك، قال الحسن البصري ﴿مهطعين﴾ أي متطلقين، ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ واحدها عزة أي متفرقين، وقال ابن عباس: ﴿فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ العزيز: العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزلون به، وعن الحسن في قوله: ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ أي متفرقين يأخذون يمينًا وشمالًا يقولون: ما قال هذا الرجل؟ وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق فقال: «ما لي أراكم عزين؟»^(١) . وقوله تعالى: ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ * كلاً، أي أيطمع هؤلاء، والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ، ونفارهم عن الحق، أن يدخلوا جنة النعيم؟ كلاً، بل ما واهم جهنم، ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم مستدلًا عليهم بالبداهة: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾، وقال: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب، ثم قال تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ أي الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، ﴿إنا لقادرون﴾ * على أن نبدل خيرًا منهم﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه﴾ * بلى قادرين على أن نسوي بناته، وقال تعالى: ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾ * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون، واختار ابن جرير ﴿على أن نبدل خيرًا منهم﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها كقوله: ﴿وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم. ثم قال تعالى: ﴿فلذوهم﴾ أي يا محمد ﴿يخوضوا ويلعبوا﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوحدون﴾ أي فيعلمون غيب ذلك ويذوقون وبالَهُ، ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ أي يقومون من القبور، إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعا ﴿كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ قال ابن عباس: إلى علم يسعون، وقال أبو العالية: إلى غاية يسعون إليها. ﴿نُصب﴾ بضم النون والصاد وهو الصنم، أي كأنهم في إسرعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، ﴿يوفضون﴾ يبتدرون أيهم يستلمه أول، وهذا مروي عن مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم، وقوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي خاشعة ترهقهم ذلَّة، أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوحدون﴾ .

[آخر تفسير سورة سأل سائل، والله الحمد والمنة]

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة، ورواه أحمد ومسلم والنسائي بنحوه.